السودان الطيّب في أيدي القساة

الحياة ١٦/٥/ ١٩٩٠

غسان سلامة *

■ السودان، ذلك الوطن الكبير، ذاك الشعب الطيب، مصاب الآن بمثل ما به لبنان مصاب: انعدام الاهتمام العربي (والخارجي). لماذا؟ لان الناس، اينما كانوا، غير مستعدين للاستمرار في متابعة اخبار شعب ظالم بحق نفسه، يدير العنف الكامن فيه ضد ذاته، وينتقل بالتالي من سيء الى أسوأ يوماً بعد يوم. واخبار السودان غير مثيرة، مهما كانت فظاعتها، لاننا نعرف ان الخبر الوارد من السودان خبر سيء ومحزن، حتى قبل ان نعرف ماهيته. والمعلومات الآتية من الخرطوم او من ام درمان، من بور سودان او من جوبا، نعرف سلفاً انها ستقبض على قلوبنا، وتدمي فؤادنا، فنعلل انفسنا بعدم الاستماع اليها، فنغير موجة الاذاعة التي نستمع اليها او نقلب صفحة الجريدة التي فيها نقرأ.

ولكن هذه اللامبالاة ظلم بحق السودان، وجرح يضاف الى جروحه الكثيرة. فالتعامي عن احوال السودان هو نوع من القهر المضاعف للشعب السوداني الكبير الذي يتحمل الآن قسوة غير انسانية على يد نظام عسكري جائر ومتحكم، يجمع التطرف الديني مع التسلط العسكري ويضيف اليهما سوء الادارة. لذلك فلا عجب ان رأى مراسل «الغارديان» في النظام القائم في الخرطوم «أسوأ انواع الديكتاتوريات القائمة». لا عجب في ذلك، لأن تلك تبدو الحقيقة فعلاً، على الرغم من تعودنا، نحن ابناء المنطقة، على انواع «راقية» اخرى من تسلط العسكر ومن قهر المتدينين المتعصبين.

تصوروا ان نظاماً يقرر فجأة اعدام ٢٨ ضابطاً في الاول من هذا الشهر. اما حكم الاعدام فقد نفذ فيهم بعد محاكمة صورية استمرت ٤ ساعات فقط بين الرابعة والنصف والثامنة والنصف صباحاً، اي ان كل واحد من هؤلاء الضباط «تمتع» بما يقارب الثماني دقائق والنصف ليدافع عن نفسه. وهذا نوع من المحاكمات الفعالة السريعة المتقدمة فعلاً، ويجعل المهداوي الشهير يموت مرة ثانية في قبره البغدادي لحسده من تلامذته المتفوقين في السودان. وتصوروا ان ثلاثة من هؤلاء الضباط كانوا قد اعتقلوا سبعة ايام قبل محاولة الانقلاب المزعومة، مما يجعل اشتراكهم في المحاولة امراً صعباً، اللهم إلا بالنوايا. ولكن ان كان النظام يود اعدام كل من يرغب بزواله، وينوي العمل على ذلك، فان الاكثرية الساحقة من الشعب السوداني معرضة لتنفيذ حكم الاعدام بحقها.

ويقول اصحابنا القادمون اخيرا من السودان ان معظم هؤلاء الضباط كان دون الثلاثين، وان عواطفهم السياسية، كانت إما غير موجودة، او متنوعة. ولكن عداءهم لسيطرة الجبهة الاسلامية على ما يسمى بـ «مجلس قيادة الثورة» كان معروفاً. ذلك ان سيطرة الجبهة تلك على الضباط المتحكمين بمصير السودان حالياً لم يعد مجهولا اذ ان علاقتها بهم تعود الى ايام الدراسة، اللهم باستثناء ثلاثة ضباط جنوبيين اضيفوا الى «المجلس الثوري» العظيم، ليتحسن منظره الوطني قليلاً. ويشير اصحابنا بالذات الى الدور الخطير الذي يلعبه العقيد الطيب ابراهيم في المجلس، وهم يلقبونه بالطيب سيخا (اي السكين) بالنظر الى ميله المعروف للعنف منذ مطلع شبابه، وهو حالياً وزير شؤون الرئاسة. ولا يتردد بعض اصدقائنا السودانيين في اعتباره الاكثر عنفاً... وانما الاعظم وزناً ايضاً في التركيبة الحاكمة.

ويتخوف اصحابنا ايضاً من النتائج القبلية المتوقعة بعد هذه الاعدامات الظالمة. فحوالي نصف الضباط المعدمين ينتسبون الى قبيلة مردي في المقاطعة الشمالية، وهم من الشايقية. ويتوقع اصحابنا ان يستعد الشايقية للانتقام لهم من النظام الحاكم في اسرع وقت ممكن، مما قد يؤدي الى حرب اهلية في الشمال السوداني، تضاف للحرب الاهلية الدائرة رحاها بين شماله وجنوبه.

فهذه الحرب الدامية لم تتوقف طبعاً، بل هي استفحلت منذ الانقلاب العسكري. ويقول اصحابنا ان العاقلين من اهل السودان متخوفون من اقدام الطغمة العسكرية الحاكمة على اعلان السودان جمهورية فيديرالية اسلامية في ٣٠ حزيران (يونيو) المقبل. ويرى هؤلاء ان من شان ذلك ان يستثير مزيداً من الروح الانفصالية في جنوب البلاد ومن ابتعاد جماهير سودانية واسعة في الشمال عن النظام القائم وهو نظام اكد القوانين الدينية الموروثة من ايام النميري، ناهيك عن تعيينه خمسة عمداء جدد لجامعات السودان وكلهم من مؤيدي التيار الديني. ومما يزيد الطين بلة، لجوء النظام الى اقامة معسكرات كبيرة تضم حوالي خمسة آلاف من الشباب، دربوا على السلاح، ولقنوا افكار الجبهة الاسلامية، وسينزلون الى الشارع مطلع الشهر المقبل، وفقا لما يقوله اصحابنا، لتكوين نوع من الميليشيا الشعبية الحامية للنظام.

ولا يدع ذاك النظام الناس وشأنهم. فمنذ وصول شلة الضباط تلك الى السلطة قامت بتسريح حوالي ثلاثة آلاف من الضباط والموظفين واساتذة الجامعات بتهمة عدم تأييدهم للجبهة وللضباط. وفي المقابل، فان كل الوزراء الحاليين هم من مؤيدي الجبهة، بمن فيهم وزير المال الذي عيّن مؤخراً في منصبه. اما المعارضون فهم بين الاقامة الجبرية (كمثل الصادق المهدي) والسجون، حيث يعاملون مثل الكفار، لانهم غير متحمسين للنظام. واسوأ تلك السجون على ما يبدو هو سجن شالا في منطقة دارفور. ويقول اصحابنا ان المعتقلين مهددون بالموت بسبب التيفوئيد وتلوث المياه، بقدر تهديدهم من جانب النظام. ويقول اصحابنا ان الافراج عن الدكتور مروان حسين لم يكن ليتم لولا تضامن الاطباء السودانيين الواسع معه واضرابهم عن العمل حتى اطلاق سراحه. لكنهم يضيفون ان اربعة غيره دخلوا السجون فور اطلاقه (بينهم طبيبة) مما يعني ان النظام بعيد عن تبني اي قدر من التسامح.

> « اذا كان النظام يود اعدام كل من يرغب بزواله، وينوي العمل على ذلك، فان الاكثرية الساحقة من الشعب السوداني معرضة لتنفيذ حكم الاعدام بحقها. »

اما الشؤون الاخرى، فيذكرها اصدقاؤنا كتحصيل حاصل: سيطرة الجبهة مثلاً على الصحف كلها، وانعدام اي اعلام له مغزى في البلاد او الاوضاع المعيشية التي «تتميز» بانعدام العديد من المواد الاساسية كالسكر والزيت والصابون وقد اصبحت الكهرباء متقطعة، والتضخم يضرب اطنابه، بينما يفكر صندوق النقد الدولي بطرد السودان من صفوفه بالنظر الى وضعه المالي الميؤوس منه، ناهيك عن الاحوال السوداء تماماً لحوالي مليون ونصف من المهجرين من قراهم بسبب استمرار الحرب في الجنوب.

وما هذا الا بعض ما اسمعنا اياه القادمون اخيرا من الخرطوم. فالسودان في حال تعيسة للغاية. ومن منا يهتم لنمو الروح الديموقراطية في المنطقة سيتذكر السودان باستمرار كقبس ضوء ثم كانتكاسة خطيرة. فالسودان كان منذ سنوات طليعياً في انتقاله التدريجي بقيادة سوار الذهب من التعسف العسكري نحو انتخابات شبه ديموقراطية وحكومة مدنية. وكنا، كغيرنا من المتابعين لاحوال السودان، مستائين من سوء ادارة الحكومة المدنية للبلاد. ومن التبدل الدائم في مواقف الصادق المهدي من عدد من الامور الاساسية، ومن عدم الاهتمام الكافي او حتى البدائي بالقضية الاقتصادية الملحة، ومن العجز المستمر عن تقديم عرض معقول لمواطني الجنوب السوداني. كنا مستائين من كل هذا، وكان عموم السودانيين بدأوا يكفرون بحكم المدنيين وبالديموقراطية نفسها. لكن كل هذا العجز بعيد عن ان يبرر التعسف الحاصل حالياً. وسيطرة الضباط المتسلطين والمتعصبين.

بقي حكي السياسة نفسها وهنا تظهر بوضوح عزلة نظام يئست مصر من التفاهم معه، وليبيا من الاتحاد معه، واثيوبيا من السلم معه، والمجموعة العربية من محاولة اقناعه بمواقف اكثر اعتدالاً. اما المجتمع الدولي فقد يئس بدوره من امكان ايجاد السودان على خريطة المنطقة، على الرغم من ان زعماء الخرطوم يكررون اتهامات قديمة عن تورط العالم باسره في مؤامرة لاطاحتهم وتقسيم بلدهم، وهي اتهامات عمرها من عمر السودان، وايا كانت صدقيتها، فانها لا تعفي انظمة الخرطوم المتعاقبة، بما فيها الحالي، من ضرورة التفكير بروح الانفتاح والتعاون في مسألة الوحدة الوطنية. اما تقارير المنظمة العربية لحقوق الانسان فهي تسجل في الآن معاً ما وصل اليه السودان من هدر لحقوق الانسان ولكرامته، وما وصلت اليه المنظمة من نشاط وجدية وصدقية في عملها الدؤوب.

اما اهل السودان انفسهم، المتلوعين من قرحة نشاط الاحزاب الطفولية، فهاجسهم، على ما يبدو، هو قدر من الهدوء والاعتدال، بما فيه وقف الاعتقالات، والتصفيات، والطرد من الخدمة العامة. انهم يبحثون عن لقمة العيش التي اصبحت نادرة، وعن الدواء الذي اصبح مفقودا. وينتظرون. ماذا؟ جوابهم ان المستقبل لن يكون الا اسوأ من الحاضر، لأن التاريخ القريب علمهم ان بلادهم تمر باستمرار من الاوضاع السيئة الى اوضاع اعظم سوءاً من تفرد النميري الى تسلط ضباط متعطشين للعنف، ومن تعددية حزبية مشرذمة الى احادية حزبية تتخفى وراء العسكر. وفي هذا الرضوخ السوداني الواسع للتشاؤم كنوع من انواع الحياة اليومية ما يقلق، وكأن الغد هو ابن الحاضر غير الشرعي، وكأن اليوم أسوأ من الامس، وافضل من اليوم الذي يليه.

اما البلدان العربية فهي طبعاً قادرة على تجاهل الامر، وقادرة ايضا على الشماتة بأهل السودان المنكوبين، بنظامهم، باقتصادهم، بجنوبهم المنفصل، وبشمالهم البائس. ولكن الاوان قد آن ايضا ليفهم قادة العرب بان ما يسمونه ابتذالا «الامن القومي العربي»، وهو تعبير عظيم حتى الفخامة، وبراق كأي امر كاذب، ذاك «الامن» يبدأ تحقيقه بأمور حسية، موضعية، تعالج الجروح النازفة قبل الاستعداد لمواجهة الجروح المتوقعة. وان كان الامر كذلك، فان السودان يجب وضعه في رأس قائمة هموم العرب، الى جانب لبنان وفلسطين. فلقد سئم السودانيون من عرب قرروا ايجاد وهم اسمه «السودان: سلة العرب الغذائية»، وهم يعرفون ان شعباً يموت من الجوع لن يقدر يوما على اطعام غيره من الشعوب.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.